الـدولـــة الأمـويـــــة

أوَّلُ المُلُوكِ.. جُنُودُهُ مِنْ عَسَلٍ

معاوية بن أبي سفيان

41 – 60 هـ

اغتيال الحسن بن علي بن أبي طالب

كانت فترة ولاية علي بن أبي طالب أقل من خمس سنوات ، بدأها بعد اغتيال الخليفة السابق له ، وانتهت باغتيال علي نفسه . وفيما بين هاتين الحادثتين لم تخمد نار الفتنة ولم تستقر الأوضاع ، حتى بعد وفاة علي والبيعة لابنه الحسن بالخلافة .

فقد رأى البعض أن الخلافة من حق الحسن بن علي وحده ، وعلى الخليفة الجديد أن يعمل على استخلاص هذا الحق بالقوة ، وإرغام معاوية بن أبي سفيان على الدخول في طاعة الحسن بن علي .

وبالفعل – يقتنع الحسن بهذا الرأي – فيخرج على رأس جيش لقتال أهل الشام . إلا إنه في الطريق تسري شائعةٌ بمقتل قائد من قوات جيش الحسن ، فإذا بنظام الجيش يختل ، وإذا بصفوف الجند تضطرب وينقلبون على أنفسهم ، و " ينتهبون بعضهم البعض " ، ولم يكتفوا بذلك ، بل تمتد أيديهم إلى زعيمهم وخليفة المسلمين الحسن بن علي ، حتى أنهم " نازعوه بساطاً كان جالساً عليه " ، كما روى ابن جرير الطبري .

ومما يقال أيضاً في هذا الحادث إن " أهل العراق " أنصار الحسن تشككوا في نواياه ، فتآمروا عليه فأرادوا اغتياله ، ومما يدعم هذا الرأي أننا نلمس في بعض الروايات أن الحسن كان مسالماً لا يميل للحرب ، وهو الذي حاول إثناء أبيه عن الخروج لقتال معاوية ، وقال له : " يا أبتِ دع هذا ، فإن فيه سفك لدماء المسلمين " .

وقد تأكد هذا الأمر فيما بعد ، عندما تنازل الحسن بن علي بالفعل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان .

ففي عام 41 الهجري يتم الاتفاق بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان على تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة ، على أن يصير إليه الأمر من بعده ، وعلى أن يُدفع للحسن خمسة ملايين درهم من بيت مال الكوفة ، وأن لا يُسب أبوه علي بن أبي طالب .

وهكذا تم الاتفاق على خليفة جديد واحد للمسلمين ، وسمي هذا العام عام الجماعة ، لاجتماع أمر الأمة على خليفة واحد هو معاوية بن أبي سفيان .

وفيما يبدو أن معاوية لم يأمن جانب الحسن أو أنصاره ، وشك في نواياه ، وهذا ما نراه في الرواية التالية :

" أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن بن علي أن يخطب الناس ويعلمهم بنزوله عن الأمر لمعاوية ، فأمر معاوية الحسن ، فقام في الناس خطيباً . فقال في خطبته ، بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ :

" أما بعد ، أيها الناس فإن الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء : 111] ، فلما قالها غضب معاوية ، وأمره بالجلوس " .

ولعل ارتياب معاوية في ولاء الحسن هو الذي دفعه للتخلص منه ، ولعل دافعه لذلك كان أيضاً إيمان معاوية بانفراده وانفراد بني أمية من بعده بالسلطة ، وهو ما يؤكده مبايعة معاوية لابنه يزيد بولاية العهد .

فبعد إتمام الحسن وأخيه الحسين الاتفاق ، غادر الحسن وآله بصحبة أخيه الحسين العراق إلى المدينة ، حيث أقاموا هناك ، لتظل المدينة لأعوام طويلة موطناً لآل علي ، كما ظلت الكوفة مركز جذب للثائرين من البيت العلوي ، كما سيأتي بعد .

وفيما يبدو أن معاوية ظل يحسن معاملة الحسن بن علي لعدة سنوات . فكان الحسن يزور معاوية وكان يفد إليه ، فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم ، وراتبه في كل سنة مائة ألف " .

ولكن هذا الحال لم يدم ، فلقد قرر معاوية تصفية الحسن باغتياله ، وكان ذلك في العام 50 الهجري ، أما الوسيلة لذلك فكانت السم ، وأما المكلف بهذه المهمة ومنفذها ، فلم يكن سوى زوجة الحسن نفسها ، وفي هذا يقول المسعودي بأن :

" ... امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سقته السم " .

ويقول ابن الأثير :

" وفي هذه السنة توفي الحسن بن علي ، سمته زوجته جعدة بنت الأشعث " .

وهو ما يذكره أيضاً السيوطي :

" توفي الحسن رضي الله عنه بالمدينة مسموماً ، سمته زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس " .

وهو ما يؤكده أيضاً كل من ابن كثير والطبري .

وكان معاوية بن أبي سفيان قد أغرى زوجة الحسن بن علي باغتياله بدسّ السم له ، على أن يكافئها بتزويجها لابنه يزيد بن معاوية .

وتقول الروايات التاريخية أن السم قد دسّ للحسن عدة مرات ، حتى قضى عليه . ومما يُروى من ذلك أن الحسن نفسه أدرك أنه سقي السم عدة مرات ، فقد قال قبيل وفاته :

" ... سُقيت السم مراراً ، وما سقيت أشد من هذه ... " .

أما الطبيب الذي حاول إنقاذ الحسن ، فقد قال عنه :

" ... هذا رجل قطّع السم أمعاءه " .

وبعد وفاة الحسن سألت زوجته معاوية أن يفي بوعده ، ولكنه أبى تنفيذ ما وعدها به ، ومما يُروى أن يزيد بن معاوية رد عليها قائلاً : " إنا والله لم نرضك للحسن ، أفنرضاك لأنفسنا ؟ " .

أما الطبري فيروي أن معاوية قد فرح بموت الحسن ، فأخذ يهلل مكبراً عندما بلغه الخبر بوفاته ، فسمعته زوجته فخرجت تسأله :

" ... فقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين ! ما هذا الذي بلغك فسررت به ؟

قال : موت الحسن بن علي ... " .

وكان من بين الذين دبر معاوية مؤامرة لاغتيالهم : حجر بن عدي الذي كان سجيناً بالكوفة ، ثم اقتيد مع رفاق له إلى دمشق ، وقبل أن يدخل حُجر دمشق برز له رجل قتله ، بعد أن أبلغه أن معاوية هو صاحب هذا القرار ... فقال :

" إن أمير المؤمنين قد أمرني بقتلك ... " .

وكذلك عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، الذي تآمر معاوية على اغتياله برشوة الطبيب الخاص به ، فوعده بخراج الأردن لمدة عام مقابل دسّ السم لعبد الرحمن .

أما الأشتر النخعي ، فكان واحداً من زعماء الثائرين على عثمان ، وقائداً من أبرز قواد جيش علي بن أبي طالب ، فقد دبر معاوية أيضاً اغتياله بالسم ، وكان علي بن أبي طالب قد أرسل الأشتر ليتولى حكم مصر ، ولما علم معاوية بذلك ، أرسل إلى " دهقان العريش" ، وأوعز إليه باغتيال الأشتر ، ووعده مقابل ذلك بخراج العريش لمدة عشرين عاماً . فوضع الرجل السم للأشتر في اللبن ، فقضى عليه ... ولما علم معاوية بذلك قال مقولته المشهورة :

" إن لله جنداً من العسل " .

وقد أقدم معاوية على خطوة غير مسبوقة ، إذ بايع بالخلافة بعده لابنه يزيد ، وآثر أن يضمن استتاب الأمر له ، وهو على قيد الحياة . وفي هذا يروي السيوطي ، فيقول أن معاوية : " هو أول من عهد بالخلافة لابنه (...) ، ثم إنه كتب إلى مروان بالمدينة أن يأخذ البيعة ، فقال : إن أمير المؤمنين رأى أن يتخلف عليكم ولده يزيد سُنة أبي بكر وعمر ، فقام عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق ، فقال : بل سُنة كسرى وقيصر ... " .

وهكذا يكون معاوية قد أهدر أشكال البيعة في الخلافة الراشدة مؤسساً لنظام ملكي وراثي . ولتوطيد هذا الأمر استخدم معاوية الحجة الدينية لتدعيم ذلك (كالأحاديث النبوية) لكسب المشروعية لنظام الحكم هذا ، وكذلك الترويج لمذهب الجبرية .

وعن فكرة الجبرية يقول الشهرستاني في كتاب " الفصل بين الأهواء والملل والنحل" :

" الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى . والجبرية أصناف ، فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً ، والجبرية المتوسطة أن يثبت للعبد قدرة غير مؤثرة " .

والجهمية هي فرقة تؤمن بالجبرية انتسبت إلى جهم بن صفوان الذي يقول عنه الشهرستاني أنه من الجبرية الخالصة ، وقد ظهرت " بدعته " بترمذ وقتل في " آخر ملك بني أمية " .

ويفسر الشهرستاني فكرة الجبرية عند هذه الفرقة بقوله إن : " الإنسان ليس يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات ، كما يُقال أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيم السماء وأمطرت ، وأزهرت الأرض وأنبتت ، إلى غير ذلك . والثواب والعقاب جبر ، قال : وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً " .

وإلى جانب هذا المبدأ الذي يفرض سلطان الحاكم على الأمة ، على أنه أمر الله ، نسبت أحاديث إلى النبي ﷺ ، تؤكد المعنى .

فقد قال معاوية بن أبي سفيان : " صببت يوماً على رسول الله ﷺ وضوءه ، فرفع رأسه إليَّ فقال : " أما إنك ستلي أمر أمتي بعدي ... " .

وقال معاوية أيضاً : " والله ما حملني على الخلافة إلا قول رسول الله ﷺ : إِنْ مَلَكْتَ فَأَحْسِنْ " .

أما معاوية فيوصي ابنه يزيد ، فيقول :

" يا بني إني قد كفيتك الرحلة والرحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعزاء ، وأخضعت لك أعناق الرجال ... " .

ولم يستثنِ معاوية من الرجال ، الذين خضعوا له ، إلا ثلاثة فقط ، حذر ابنه منهم وهم : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . ثم شرح معاوية لابنه حال الرجال الثلاثة شرحاً ينم عن بصيرة رجل عليم بالأمور مِن حوله وبتطوراتها ، فيقول عن ابن عمر أنه : " رجل ثقة وقد وقـذته العبادة ، وإذا لم يبـقَ أحد غيره بايـعك " . ويقول عن الحسين بن علي : " وأما الحسين فإن أهل العراق خلفه لن يدعوه حتى يخرجوه عليك ، فإن خرج فظفرت به فاصفح عنه ... " .

أما ثالث هؤلاء فكان ابن الزبير ، وهو في عيني معاوية أشدهم خطراً وبأساً ، لذا نجده يحذر ابنه يزيد منه فيقول :

" وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك روغان الثعلب ، وإذا أمكنته فرصة وثب – فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً " .

وكان معاوية يريد أن يصبح يزيد – ابنه – خليفة للمسلمين ، فلنرَ حكم التاريخ على يزيد ، حيث يقول المؤرخ المسعودي :

" ليزيد أخبارٌ عجيبة ومثالب كثيرة من شرب الخمر ، وقتل ابن بنت الرسول ، ولعن الوصي ، وهدم البيت وإحراقه ، وسفك الدماء والفسق والفجور وغير ذلك مما قد ورد فيه الوعيد باليأس من غفرانه " ، وتوفي معاوية بن أبي سفيان بعد أن ظل يحكم المسلمين قرابة عشرين عاماً . ثبت خلالها دعائم حكم دولة بني أمية . وكانت وفاته في عام 60 هـ .

بتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة تبدأ دولة بني أمية التي استمرت تسعين عاماً . وشهدت هذه الفترة توسعاً كبيراً في العالم الإسلامي ، فقد امتد في الشرق ليشمل إيران والهند والصين وآسيا الوسطى ، وامتد في الغرب إلى شمال أفريقيا والأندلس (إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا) . وكان مركز الدولة في دمشق.

***

أَوَّلُ خَلِيْفَةٍ بِالوِرَاثَة

يزيد بن معاوية

60 - 64 هـ

اغتيال الحسين بن علي بن أبي طالب

ويتولى يزيد الأمر بعد وفاة أبيه ، ويبدو أن صدى وصية أبيه كان لا يزال يتردد في أذنيه ، فيسرع بتنفيذها على نحو أكثر تشدداً ، فنراه يبعث إلى واليه على المدينة هذا الأمر :

" ... فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ، ليس فيه رخصة حتى يبايعوا ... " .

هكذا تُظهر العبارة السابقة مدى تشدد يزيد وعدم تهاونه في العمل على استتباب الأمور ، واستخلاص السلطان له ولبني أمية ، مهما كانت النتائج .

وكانت النتائج بالفعل مروعة ، وهذا ما نراه في تطورات أحداث عديدة مهمة وقعت إبَّان خلافة يزيد بن معاوية ، القصيرة – نسبياً – التي كانت أقل من أربع سنوات .

وكان أول هذه الأحداث هو : مصرع الحسين بن علي بن أبي طالب في العاشر من المحرم لعام 61 هـ .

فقد أولى يزيد اهتماماً بالغاً بأخذ البيعة من الحسين ، زعيم البيت العلوي ، ورمز آل بيت النبي ، وبني هاشم .

وفيما يبدو أن طبيعة الحسين كانت مخالفةً لطبع أخيه الحسن المسالم ، فقد خالف الحسين الحسن رأيه في التنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، فلما مات معاوية ، رفض الحسين أيضاً المبايعة لابنه يزيد ، بل وخرج من المدينة إلى مكة مع عبد الله بن الزبير ، وهو على موقفه هذا .

ولم يلبث أن أتته دعوة أهل الكوفة ، يستحثونه على الخروج إليهم ، ويعدونه بمناصرته وشد أزره لاستعادة الحق المغتصب ، حسبما اعتقدوا .

ويبدو أن الفكرة لاقت استحساناً في نفسِ الحسين وآمن بها وصم أذنيه عن محاولات أهله وأنصاره بالعدول عنها ، وصمم الحسين على الخروج إلى الكوفة .

وقبل أن يتوجه الحسين إلى الكوفة قام بإرسال مبعوث خاص إلى هناك ، وهو ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ؛ كي يقف على الأمر ويمهد له الطريق .

وعندما يصل مسلم إلى الكوفة ، يحيط به أهلها معلنين تأييدهم للحسين ، فلما رأى مسلم ذلك أرسل إلى الحسين مؤكداً له الأمر ، ومجدداً الدعوة له بالقدوم إلى الكوفة .

ولكن !! فيما بين إرسال مسلم بكتابه إلى الحسين وقدوم الأخير ، تلاحقت الأحداث .

فسرعان ما يعلم يزيد بالأمر فيقوم بعزل والي الكوفة ، ويرسل مكانه "عبيد الله بن زياد " . ويأتي عبيد الله بن زياد الكوفة ، فيقبض بسرعة على الأمور .

وبالسرعة نفسها ينفض أهل الكوفة عن مسلم بن عقيل ، مبعوث الحسين ، حتى صار ابن عقيل وحيداً بلا حولٍ ولا قوة ، فيحاول الاختباء ، ولكن يقبض عليه ويساق إلى قصر الوالي .

وهناك يدور جدل بين الرجلين ينتهي إلى قرار الوالى بقتل مسلم بن عقيل . إذ صاح عبيد الله بن زياد في وجه مسلم :

" قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام من الناس " .

فكان أن أخذ أعوان الوالي مسلم بن عقيل وصعدوا به إلى سطح القصر ، ثم قطعوا رأسه وألقوها أسفل القصر ، ثم ألقوا بجسده وراءها .

أما الحسين بن علي فكان قد خرج قاصداً الكوفة ، وهو غير عالمٍ بما آل إليه مصير ابن عمه ، ولا بنكوص أهل الكوفة على أعقابهم وحنثهم بوعدهم له ، بل نراه يرسل إليهم قائلاً :

" ... أما بعد ، فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع بلائكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فنسأل الله أن يحسن لنا الضيع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم أجر ، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمانٍ مضين من ذي الحجة ... " .

ولكن الرسالة المبعوثة إلى " لا أحد " لم تصل ، بل ويقع حاملها في قبضة عبيد الله بن زياد ، فيصعده هو أيضاً إلى سطح القصر ، ويقول له :

" اصعد إلى أعلا القصر ، فسب الكذاب بن الكذاب علي بن أبي طالب وابنه الحسين " ، ويصعد رسول الحسين " أعلا القصر " ، ولكنه بدلاً من أن يسب عليَّاً وابنه الحسين ، يسب عبيد الله بن زياد .

فيكون جزاؤه ... أن يلقى به هو الآخر من " أعلا القصر " ، أو على حد تعبير ابن كثير : " ... فألقِيَ من رأس القصر ، فتقطع " .

أما الحسين فكان مازال ماضياً إلى غايته ، وكان ينضم إليه في الطريق بعض المؤيدين ، الذين سرعان ما انفضوا من حوله حين وقف الحسين على حقيقة الأمر ، فشرع يقول لهؤلاء :

" قد خذلنا شيعتنا ، فمَن أحب أن ينصرف ، فلينصرف " .

وينقضي شهر ذو الحجة لتنتهي معه هذه السنة الهجرية ويقبل شهر المحرم ، أول شهر في العام الجديد : 61 هـ .

ويصل الحسين إلى كربلاء .

ويصل أيضاً جيش عبيد الله بن زياد ، وعلى رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص ، قريب الحسين .

فلما التقى الجمعان عرض الحسين على عمر بن سعد حلولاً ثلاثة ليختار عمر واحداً منها يقوم الحسين بتنفيذه : فإما أن يدعه يعود من حيث أتى ، وإما أن يذهب بنفسه إلى يزيد ، أو يجعله يمضي لقتال الترك !

ولكن عندما تصل هذه الأخبار إلى ابن زياد ، يرفض اقتراحات الحسين ، ويرسل شمر ابن ذي الجوشن ويأمره :

" ... اذهب ، فإن جاء حسين وأصحابه على حكمي ، وإلا فأمر عمر بن سعد أن يقاتلهم ، فإن تباطأ فاضرب عنقه ، ثم أنت الأمير على الناس " .

وفي يوم العاشر من المحرم ينشب القتال بين جيش الأمويين ، الذي كان يقدر بأربعة آلاف رجل ، وبين فرقة الحسين التي لم يزد عددها على اثنين وسبعين رجلاً .

ويقبل الحسين على خصومه ، وهو يذكرهم بمنزلته ونسبه ، فيقول لهم :

" ... راجعوا أنفسكم وحاسبوها ، هل يصلح لكم قتال مثلي ... " .

ولكن الأمر كان محسوماً ، ولم يكن هناك إلا خيار بين أمرين ، إما أن يدخل الحسين في طاعة يزيد بن معاوية ، وإما السيف .

فكان الخيار الأخير ، وحمل جيش الأمويين على الحسين وصحبه ، الذين ظلوا يدافعون عنه حتى قُتِلوا ..

وصار الحسين وحيداً ..

وكان هذا المشهد ، كما يصوره لنا ابن كثير :

" ... وقد اشتد عطش الحسين ، فحاول أن يشرب من ماء الفرات فما قدر ، بل مانعوه عنه ، فخلص إلى شربة منه فرماه رجل يُقال له حصين بن تميم بسهم في حنكه فأثبته ، فانتزعه الحسين من حنكه ، ففار الدم فتلقاه بيديه ثم رفعهما إلى السماء وهما مملوءتان دماً ، ثم رمى به إلى السماء وقال : " اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تذر على الأرض منهم أحداً ! " ، وأحاط القوم بالحسين ، وشمر بن ذي الجوشن يصيح بهم : " ... اقتلوه ، ثكلتكم أمهاتكم ! " .

فيهجم الرجال على الحسين وينال منه أحدهم ، فيصيبه إصابة خطيرة جعلت الحسين : " ... ينوء ويكبو ، ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع ، ثم نزل فذبحه وحزَّ رأسه " .

ويُقال إن عمر بن سعد لم يكتفِ بقتل الحسين وحزّ رأسه ، فأمر " ... عشرة فرسان فداسوا الحسين بحوافر خيولهم ، حتى ألصقوه بالأرض " .

وكان أن حُمِل رأس الحسين إلى والي الكوفة عبيد الله بن زياد ، فأمر أن يطاف به في أرجاء الكوفة ، ثم أرسله إلى الخليفة يزيد بن معاوية ... " ، فلما وضع رأس الحسين بين يدي يزيد بن معاوية جعل ينكت بقضيب كان في يده في ثغره ... " .

ويضيف الطبري إلى هذا : " ثم أمر يزيد بالرأس فنصب على باب دمشق أياماً وجهز ابن الحسين ونساء الحسين ، فتلقاهم الناس بالبكاء والعويل " .

***

أما الحدث – المهم – الثاني ، الذي وقع في عهد يزيد فكان : " معركة الحرّة " التي دارت بين جيش يزيد وأهل المدينة في نهاية عام 63 هـ .

وكان سبب هذه المعركة أن أهل المدينة رأوا أن يزيد بن معاوية قد " ... أسرف في المعاصي ... " كما يقول السيوطي ، الذي يضيف أن يزيد كان " ... يشرب الخمر ويدع الصلاة ... " ، وهو ما يؤكده الطبري ، فيقول " غاب يزيد يشرب الخمر ويلعب بالكلاب ويتهاون بالدين " . وهكذا عقد أهل المدينة عزمهم ، فخلعوا يزيد ابن معاوية من الخلافة ثم التفوا إلى بني أمية فحاصروهم ، فراسل هؤلاء يزيد يعلمونه بالأمر ويستجيرون به ، فكان أن أرسل يزيد جيشه إلى هناك ، وقال لقائده مسلم بن عقبة المري :

" ادع القوم ثلاثاً ، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكُفّ عنهم ، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً ثم اكفف عن الناس ... " .

وسار مسلم بالجيش الأموي حتى وصل مشارف المدينة ، ونزل بموضع يُقال له الحرة ، وهاجم مسلم أهل المدينة فهزمهم ، وأباح المدينة لجنوده ثلاثة أيام :

" ... يقتلون من وجدوا من الناس ، ويأخذون الأموال ... " .

ولم يكتفِ الجنود بذلك ، وتمادوا في عدوانهم على أهل المدينة ، فاغتصبوا نساءها : " ... حتى قيل : إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج ... " ، وهو ما يذهب إليه أيضاً السيوطي ، فيقول : " ونُهبت المدينة وأُفتض فيها ألف عذراء " ، وكان آخر الأحداث في عهد يزيد هو : حصار مكة .

فبعد القضاء على تمرد العلويين بقيادة الحسين بن علي ، وبعد إخماد ثورة أهل المدينة ، لم يبقَ أمام يزيد بن معاوية إلا قتال عبد الله بن الزبير ، الذي كان قد رفض المبايعة ليزيد بالخلافة ، وخرج من المدينة إلى مكة ، وقد وجد ابن الزبير من يؤيده في خلافه مع يزيد ، ويقف بجواره مناصراً إياه ، فكان أن أرسل يزيد جيشاً لمحاربة ابن الزبير وأنصاره في أوائل عام 64 هـ ، وحاصر جيش يزيد مكة وضربها بالمنجانيق ، حتى قيل إن جدار البيت الحرام احترق من أثر النيران ، وهو ما يرويه الطبري ، فيقول : " وضرب البيت بالمجانيق ، وأحرقه بالنار ، واحترق باب الكعبة وخشبها واسودَّ الركن وانصدع منه اثنا عشر مكان " . ولم يوقف هذه المعركة إلا وفاة يزيد نفسه ، بعد ذلك بعدة أيام .

***

معاوية بن يزيد بن معاوية

64هـ

بعد وفاة يزيد ، يتولى أمر المسلمين بعده ابنه : معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وكان معاوية حينذاك شاباً حديث السن ، إلا إنه سرعان ما توفي بعد توليه الخلافة بفترة وجيزة ، يقدرها البعض بأربعين يوماً ، ويقدرها البعض الآخر بثلاثة شهور .

وقد توفي معاوية هذا ولم يوصِ لأحد من بعده بالخلافة ، وكانت هذه رغبته ، فقد أتاه القوم ، حين دنا أجله ، يسألونه عن البيعة بالخلافة لمن بعده ، فرد عليهم وقال :

" ما أصبت من حلاوتها فلِمَ أتحمل مرارتها ؟ " .

ويبدو أن معاوية بن يزيد قد شاء – بالفعل – عدم تحمل مسئولية إقامة خليفة على الناس ، وشاء ترك الأمر لهم ، ليختاروا حاكمهم بأنفسهم ، فمما يُروى في هذا المجال أن معاوية جمع الناس ، وخطبهم ، فقال :

" أيها الناس إني قد وليت أمركم وأنا ضعيفٌ عنه ، فإن أحببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصّديق لعمر ، وإن شئتم تركتها شورى في ستة منكم ، كما تركها عمر بن الخطاب ، وليس فيكم من هو صالح لذلك ، وقد تركت لكم أمركم فولُّوا عليكم من يصلح لكم " .

***

أوَّلُ خَلِيْفَةٍ تَغْتَالُهُ زَوْجَتُهُ

مروان بن الحكم

64 - 65 هـ

ويتوفى معاوية بن يزيد أيضاً في عام 64 هـ ، وهو العام نفسه الذي توفي فيه أبوه يزيد بن معاوية ، وهو العام الذي شهد اضطراب أمر بني أمية ، فكادت القلاقل تعصف بدولتهم .

فقد توفي آخر خليفة أموي دون أن يبايع لأحد من بني أمية ، هذا بينما كان نفوذ عبد الله ابن الزبير قد امتد ليشمل كلّاً من الحجاز واليمن والعراق وخراسان ، وكان أهل هذه المناطق قد بايعوا عبدالله بن الزبير خليفة عليهم ، ولم يبقَ خارج دائرة نفوذه سوى الشام ومصر . فلما مات معاوية بن يزيد انضوى أيضاً هذان الإقليمان تحت نفوذ ابن الزبير .

وكان الخليفة معاوية يفكر قبل وفاته بالبيعة لابن الزبير ...

وكذلك كان مروان بن الحكم قد عزم على مبايعته .

إلا إن بعض الأمويين زين الأمر لمروان بن الحكم ، وحضه على البيعة لنفسه ، واستطاع إثناءه عن البيعة لابن الزبير . وكان عمرو بن سعيد بن العاص اتفق مع مروان على تنصيب مروان خليفة ، على أن يوليه هو الأمر من بعده .

وقد قال عمرو لمروان : " أدعو الناس إليك وآخذها لك ، على أن تكون لي من بعدك " .

ولكن عمرو بن سعيد عاد ، وارتضى أن تكون الخلافة بعد مروان بن الحكم من نصيب خالد بن يزيد بن معاوية ، على أن تؤول الخلافة بعد ذلك إلى عمرو .

وهكذا ، صار مروان بن الحكم خليفة ، ونجح بنو أمية في استعادة سلطانهم على الشام ومصر .

ولكن مروان بن الحكم لم يهنأ بهذا الأمر طويلاً ، فقد توفي في رمضان من عام 65 هـ . فكانت فترة خلافته 9 شهور .

ويُروَى أن نهاية مروان بن الحكم كانت على يد زوجته ، التي اغتالته .

وكانت هذه هي نفسها ، زوجة للخليفة يزيد بن معاوية ، وهي أيضاً أم خالد بن يزيد ابن معاوية ، ولي عهد مروان بن الحكم ، وقد تزوجها مروان كي يحقر من شأن ابنها خالد ، ولي عهده ، فصار يؤذيه ويسخر منه ، ويهزأ به ، فيناديه :

" يا بن الزانية "، بل إنه عايره بأمه أمام الناس ، فقال له : " يا بن الرطبة الإست " .

ويروي ابن كثير أن خالد شكى لأمه من مروان ، فكتمت الأمر وعزمت على الخلاص منه ، ثم يضيف :

" ... ثم إن مروان رقد عندها ، فلما أخذه النوم عمدت إلى وسادة فوضعتها على وجهه ، وتحاملت عليها هي وجواريها حتى مات غماً ... " . وهي أيضاً الرواية نفسها التي يقصها ابن الأثير . أما الطبري فيقول أن زوجة مروان سمَّته ، ثم يضيف : " ... وقيل بل وضعت على وجهه مخدة مملوءة ريشاً وجلست على وجهه فمات " .

أما المسعودي فيروي واقعة اغتيال مروان بن الحكم على نحو مختلف ، فيقول إن أم خالد أعدت لمروان لبناً مسموماً :

" ... فلما دخل عليها ناولته إياه فشرب ، فلما استقر في جوفه وقع يجود بنفسه ، وأمسك لسانه ، فحضره عبد الملك وغيره من ولده ، فجعل مروان يشير إلى أم خالد برأسه يخبرهم أنها قتلته ، وأم خالد تقول : بأبي وأمي أنت ، حتى النزع الأخير لم تشتغل عني؟ إنه يوصيكم بي ... " .

وهكذا انتهى أمر مروان بن الحكم نهاية غريبة ... إلا إنها تتسق مع سيرة رجل غريب الأطوار ... فهو الذي عاد من المنفى ليصير كاتباً لعثمان بن عفان ، وكان واحداً من أهم أسباب الثورة على عثمان ، ثم صار من أهم المحرضين على الطلب بدم عثمان ، وقاتل في سبيل ذلك ، وصار خليفة ، فيُغتال هو أيضاً ، إلا إن أحداً لم يجرؤ على الثأر له ، فعندما أراد ابنه عبد الملك قتل أم خالد حذره قومه من ذلك ؛ لأن هذا سوف يثبت أن أباه قتل بيد امرأة .

***

عبد الملك بن مروان

65 — 86 هـ

بعد وفاة مروان يتولى الأمر من بعده ابنه عبد الملك بن مروان بن الحكم ، في السنة نفسها ، أي عام 65 هـ . وامتدت خلافته حتى عام 86 هـ .

وكان من أهم أعمال عبد الملك هو استعادة نفوذ بني أمية من أيدي عبد الله بن الزبير ، والقضاء عليه ، فقد سيَّر عبد الملك جيشاً أموياً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة ، مقر حكم عبد الله بن الزبير . فحاصر الحجاج مكة عدة شهور ، ورماها بالمجانيق ، وهو ما يرويه الطبري فيقول : " ... ورمى الكعبة بالمجانيق حتى هدمها ورموها بكيران النفط والنار ... " ، فانفض أنصار الزبير من حوله ، وقد آثروا السلامة ، تاركين الزبير يلقى مصيره ... فوقع في يد الحجاج ، فقُتل ثم صلب في سنة 73 هـ .

وقبل القضاء على عبد الله بن الزبير كان عبد الملك بن مروان قد قضى على خصم عنيد ، كان ينازعه الملك ، وهو : عمرو بن سعيدبن العاص ، الذي كان مروان بن الحكم قد ولاه عهده بعد ابنه . فدبَّر عبد الملك مؤامرة لاغتياله ، فتحايل عليه حتى استدرجه إلى قصره ، وتمكن عبد الملك من عمرو ، ثم نادى غلامه :

" يا غلام ، ائتني بالحربة ، فأتاه بها وضربه فلم تغنِ شيئاً ، ثم ثنى فلم تغنِ شيئاً ، فضرب بيده إلى عضد عمرو فوجد مس الدرع ، فضحك وقال : أدارع أيضاً ؟ إن كنت لمعداً . يا غلام : ائتني بالصمصامة " .

فأتاه بسيفه ، ثم أمر بعمرو فصرع ، ثم جلس على صدره فذبحه ... " .

ويعلق السيوطي على هذه الحادثة ، فيقول :

" وكان قتله أول غدر في الإسلام ، فقال بعضهم :

وَيَقْتُلُوْنَ الرَّجَالَ البُزْلَ ضَاحِيَةً لِكَي يؤلـوا أمُوْرَ النَّاس ولْدَانَا

تَـلْـاعَبُـوا بِكِتَـابِ اللهِ فَاتَّـخَـذُوْا هَـوَاهُمْ فِي مَعَاصِي اللهِ قُرْآنَا"

وبعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مـروان بن الحكم ، تولى ابنه الوليد الحكم في عام 86 هـ ، وظل فيه حتى عام 96 هـ .

وعن الوليد بن عبد الملك يقول السيوطي :

" كان أبواه يترفانه ، فشب بلا أدب ".

وكذلك يقول المسعودي :

" كان الوليد جباراً عنيداً ، ظلوماً غشوماً ... " .

وهو الرأي نفسه الذي يذهب إليه ابن الأثير ، حيث يقول عن الوليد : " ... وكان جباراً عنيداً ... " .

ثم يلي الحكم ، سليمان بن عبد الملك ، بعد وفاة أخيه الوليد في عام 96 هـ ؛ ليستمر على عرش بني أمية حتى 99 هـ .

***

اغتيال خامس الخلفاء الراشدين

عمر بن عبد العزيز

99 – 101 هـ

وعندما شعر الخليفة سليمان بن عبد الملك بدنو أجله عقد العزم على تولية رجل بعينه خليفةً للمسلمين من بعده . ولما كان الرجل المقصود من غير بيت عبد الملك ، أقدم الخليفة على حيلة غريبة يضمن بها البيعة لهذا الرجل ، فكتب وصيته وأمر الناس أن يبايعوا اسم مَن فيها وهي مختومة ، فبايع الناس .

فلما توفي سليمان اجتمع القوم وفضوا الوصية ، وإذا هي مفاجأة ، فقد نصت الوصية على أن يكون عمر بن عبد العزيز خليفة .

وهكذا رضخ القوم للأمر ... وصار عمر خليفة للمسلمين عام 99 من الهجرة .

أما السبب الذي دفع سليمان بن عبد الملك إلى تولية عمر من بعده ، فكان موقفاً نزيهاً لعمر تجاه سليمان ، عندما كان ولياً لعهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فقد شاء الخليفة الوليد خلع سليمان من ولاية العهد والبيعة بها لابنه ، فأجابه كثيرون إلى ذلك ، إلا عمر بن عبدالعزيز الذي تمسك بولاية سليمان وصمم على ذلك .

وعمر بن عبد العزيز من الفرع المرواني لبني أمية ، فجده هو مروان بن الحكم ، إلا إن جده لأمه كان عمر بن الخطاب ، وقد وُلد عمر بن عبد العزيز عام 60 من الهجرة بحلوان في مصر – حيث كان أبوه أميراً عليها – وهو ما جاء برواية السيوطى بينما يذكر مؤرخون غيره أن عمر ولد بالمدينة . وقد اشتهر عمر بصلاحه وإصلاحاته حتى عدَّه الكثيرون خامس الخلفاء الراشدين .

فمما يُذكر له أنه أوقف سب علي بن أبي طالب ، وهو الأمر الذي كان منتشراً حتى وقت ولايته .

ويُذكر له أيضاً إصلاحه الضريبي .

وقبل أن يكمل عمر عامه الأربعين تأتيه المنية ، فيتوفى عام 101 من الهجرة .

ويذكر السيوطي أن عمر بن عبد العزيز قد اغتيل بالسم ، فيقول :

" كانت بنو أمية قد تربصوا به لكونه شدد عليهم وانتزع من أيديهم كثيراً مما غصبوه ، وكان قد أهمل التحرز فسقوه السم . قال مجاهد : قال لي عمر بن عبد العزيز : ما يقول الناس فيَّ ؟

قلت : يقولون : مسحور .

قال : ما أنا بمسحور ، وإني لأعلم الساعة التي سقيت فيها .

ثم دعا غلاماً له ، فقال له : ويحك ! ما حملك على أن تسقيني السم؟

قال : ألف دينار أُعطيتها وعلى أن أُعتق .

قال : هاتها .

قال : فجاء بها ، فألقاها في بيت المال ، وقال : اذهب حيث لا يراك أحد " .

***

يزيد بن عبد الملك

101 – 105 هـ

طبقاً لوصية سليمان بن عبد الملك ، تولى أخوه يزيد الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز .

وقد سار يزيد عدة أسابيع على نهج عمر بن عبد العزيز ، ثم انقلب على هذا النهج . فنجده – على سبيل المثال – يكتب إلى عماله آمراً إياهم بإلغاء إصلاحات عمر الضريبية ، فيقول لهم :

" ... فإن عمر كان مغروراً ... فدعوا ما كنتم تعرفونه من عهده وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أو ماتوا " .

ويعلق السيوطي عن عدول يزيد عن نهج عمر بن عبد العزيز قائلاً :

" وعمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده ، ولم يخف شناعةً عاجلة ، ولا إثما عاجلاً " .

وفي شعبان من عام 105 هـ يتوفى يزيد بن عبد الملك ، وقد مات يزيد كمداً ، من فرط حزنه على وفاة جاريته " حبابة " التي كان قد أحبها حباً يفوق الوصف .

ويصف لنا المسعودي حال يزيد بعد وفاة حبابة :

" ... فأقام أياماً لا يدفنها جزعاً عليها حتى جَيّفت ، فقيل له : إن الناس يتحدثون بجزعك ، وإن الخلافة تجل عن ذلك . فدفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فَإِنْ تَسَل عَنْك النَّفْسُ أوْ تدع الهَوَى فَبِاليَأسِ تَسْلُوْ النَّفْسُ لَا بِالتَّجَلّ

ثم أقام بعدها أياماً قلائل ومات .

ويروي ابن الأثير قصة وفاة الخليفة والجارية ، فيقول :

" ... وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان ، فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى أنتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها وهو يبكي ... " .

ثم يكمل ابن الأثير القصة :

" ... فخرج مشيعاً لجنازتها ومعه أخوه مسلمة بن عبد الملك ليسليه ويعزيه ، فلم يجبه بكلمة ، وقيل إن يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشي ، فأمر مسلمة فصلى عليها ، وقيل : منعه مسلمة عن ذلك لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه به . فلما دُفِنَت بقِيَ بعدها خمسة عشر يوماً ، ومات ودفن إلى جانبها ..." .

***

اغتيال الوليد الجبار

125 – 126 هـ

ثم تولَّى هشام بن عبد الملك بعد أخيه يزيد ، عام 105 هـ . ويبدو أن الأوضاع قد استقرت في عهد هشام ، ويبدو أن الفضل في ذلك يرجع إلى صفات تمتع بها هذا الخليفة ، الذي ظل يحكم قرابة العشرين عاماً .

وقد عدد السيوطي بعضاً من صفات هشام بن عبد الملك ، فقال :

" ... وكان هشام حازماً عاقلاً ، كان لا يُدِخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون قامة : لقد أخذ من حقه ، ولقد أعطى لكل ذي حقٍّ حقه " .

وقال أيضاً :

" ... ما رأيت أحداً من الخلفاء أكره إليه الدماء ، ولا أشد عليه من هشام" .

وبوفاة هشام بن عبد الملك في عام 125 هـ ، تكون فترةٌ من الهدوء والاستقرار قد انتهت ، لتبدأ فترةٌ أخرى عاصفة الأحداث .

فقد تولَّى بعد هشام الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وفيما يبدو أن الوليد كان على النقيض من هشام ، فإذا ما رجعنا للسيوطي مرة أخرى وجدناه ينعت الوليد بـ " الخليفة الفاسق" ، ثم يردف : " ... وكان فاسقاً ، شارباً للخمر ، منتهكاً حرمات الله ، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة ... " .

وعن هذه الواقعة يروي ابن الأثير :

" ... وعمل قبة على قدر ليضعها على الكعبة ، وحمل معه الخمر ، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويشرب فيها الخمر ... " .

أما المسعودي فيروي ما يلي عن الوليد :

" كان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب ... " .

" وكان متهتكاً ، ماجناً خليعاً ، ومن مجونه أيضاً على شرابه قوله لساقيه :

اسْقِنِي يَا يَزِيْدُ بالقرقارَة قد طربْنا وَحن الزُمارَة
اسْقِنِي اسْقِنِي فإنَّ ذنُوْبي قَدْ أحَاطتْ فمَالهَا كَفَّارَة

ويروي المسعودي أيضاً أن مغنياً يدعى ابن عائشة ، كان بحضرة الخليفة يغنيه ، فأعجب الوليد بغنائه ، فقال له :

" أحسنت يا أميري ، أعد بحق عبد شمس ، فأعاد ، فقال :

أحسنت والله ، بحق أمية أعد ، فأعاد .

فجعل يتخطى من أب إلى أب ويأمره بالإعادة ، حتى بلغ نفسه ، فقال : أعد بحياتي . فأعاد .

فقام إلى ابن عائشة فأكب عليه ، ولم يُبق عضواً من أعضائه إلا قبّله ، وأهوى إلى إيره يقبله ، فجعل ابن عائشة يضم ذكره بين فخذيه ، فقال الوليد : والله لازلت حتى أقبله . فأبرأه ، فقبل رأسه وقال : واطرباه ، واطرباه .

ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة " .

ويبدو أن الوليد قد مضى في غيه إلى أبعد مدى ، فمما يرويه عنه المسعودي أيضاً :

" وقرأ ذات يوم : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم : 15 – 16] ، فدعا بالمصحف ، فنصبه غرضاً للنشّاب وأقبل يرميه وهو يقول :

أتوعِدَ كل جبارٍ عنيد فهَا أنَا ذاكَ جبارٌ عَنِيْد
فإذَا مَا جِئْت رَبَّكَ يَومَ حَشْر فقُلْ يَا رَبّ خرقنِي الوَلِيْد

كان ذلك وغيره من صور مجون الخليفة الأموي الوليد بن يزيد سبباً في ثورة قومه عليه وحصارهم له في قصره ، ثم اغتياله .

فيقول ابن الأثير :

" وكان سبب قتله ما تقدم ذكره من خلاعته ومجونه ... " .

أما السيوطي فيروي أنهم قتلوا الوليد واحتزوا رأسه ثم نصبوها على رمح .

" ... فنظر إليه أخوه سليمان بن يزيد ، فقال : بُعداً له ، أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً ، ولقد راودني على نفسي " .

ويشتد عصف الأحداث بدولة بني أمية ، فبعد اغتيال الخليفة السابق ، جلس على عرش الدولة الأموية يزيد بن الوليد بن عبدالملك .

ولكن القدر لم يمهله ، فعاجلته المنية بعد ستة شهور ، ليتوفى في العام نفسه ، عام 126هـ .

***

وإذا كان يزيد لم يحكم أكثر من ستة شهور ، فإن حظ خليفته إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك كان أقل ، فقبل أن ينقضي الشهر الثالث ، بعد توليه الخلافة ، يثور عليه مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم ، مطالباً بدم الوليد ، ويعلن مروان خلع إبراهيم أيضاً في العام نفسه 126 هـ ، ثم يدخل دمشق ، ويفر الخليفة إبراهيم بن الوليد ، وتتم له البيعة في عام 127 هـ ، ويتم نبش قبر يزيد بن الوليد ، وتأُخذ جثته لتصلب .

ولكن سرعان ما يثور سليمان بن هشام بن عبد الملك على مروان بن محمد ، ويعلن خلعه من الخلافة .

وبالرغم من أن مروان استطاع قهر سليمان ، إلا إن القدر ، فيما يبدو ، كان قد حسم أمر الدولة الأموية ... وأعلن نهايتها ... ونهاية آخر حكامها : مروان بن محمد .

ويصف السيوطي اضطراب أمر آخر الخلفاء الامويين فيقول : " ثم إنه لم يتهنَّ بالخلافة ؛ لكثرة من خرج عليه من كل جانب ... " .

***